

إبستمولوجيا العقل النحوي العربي: فحص في الأسس النظرية والآفاق الإجرائية للنظرية الخليلية الحديثة

The Epistemology of the Arabic Grammatical Mind :An Examination of the Theoretical Foundations and Procedural Horizons of Modern Khalilian Theory

د. وردة سخري

المركز الجامعي الشهيد سي الحواس- بركة(الجزائر).

Warda.sakhri@cu-barika.dz

مخبر دراسات في اللغة والأدب

تاريخ الاستلام: 2026/05/29 تاريخ القبول: 2026/09/08 تاريخ النشر: 2026/10/01

ملخص:

يسعى هذا المقال إلى تحليل آليات هذا التحول المنهجي، من خلال رصد تلك القطيعة المعرفية مع النحو التعليمي المتأخر، مبرزاً ميكانيزمات النموذج الخليلي في تشكيل الجملة، وصولاً إلى استنباط مدى قدرة الحاج صالح في جعل التراث النحوي العربي نظاماً قادراً على اقتحام عصر الذكاء الاصطناعي والمعالجة الآلية، محققاً بذلك المعادلة الصعبة بين أصالة المنهج وحدثة الرؤية.

وهذا الجهد العلمي لا يروم إلى نقد أو انتقاد المتراكم المعرفي السابق، بل يسعى إلى استثمار مخرجاته وصهرها في قالب أكثر فاعلية لخدمة اللسان العربي، إنها محاولة لاستجابة واعية لاحتياجات القاريء المعاصر، في حقل لغوي ظلّ عبر العصور يمثل الجوهر الوجودي للإنسان؛ فاللغة ليست مجرد أداة، بل هي مبتدأ التطور ومنتهى الاستمرارية الحضارية، فلا بدّ من المضي قدماً في الدراسات اللغوية، ليس كحقل أكاديمي منعزل، بل كمشروع حيوي يربط الأصالة بالمعاصرة، ويلبي طموحات المستقبل.

كلمات مفتاحية: عبد الرحمن الحاج صالح، النظرية الخليلية الحديثة، اللسان العربي، الأصالة، المعاصرة.

Abstract:

This article seeks to analyze the mechanisms of this methodological shift by observing the cognitive rupture with traditional grammar. It highlights the mechanisms of the Khalilian model in sentence formation, ultimately reaching the extent of Abderrahmane Hady Saleh's ability to render the Arab grammatical heritage a system capable of engaging with the era of artificial intelligence and automated processing, thereby achieving the difficult balance between methodological originality and modernity of vision.

This scholarly effort does not aim to criticize or deconstruct previous accumulated knowledge; rather, it seeks to utilize its outputs and reshape them into a more effective framework to serve the Arabic language. It is an attempt to respond consciously to the needs of the contemporary reader in the field of linguistics, which has represented the existential essence of humanity throughout the ages. Language is not merely a tool; it is the principle of development and the end of civilizational continuity. Thus, one must move forward in

linguistic studies—not as an isolated academic field, but as a vital project that links originality with contemporaneity and aligns with the aspirations of the future.

Keywords : Abderrahmane Hadj Saleh, Modern Khalilian Theory, Arabic Language, Originality, Contemporaneity.

*المؤلف المرسل: د. وردة سخري

1. مقدمة

تعدّ النظرية الخليلية الحديثة التي أرسى معالمها العلامة عبد الرحمن الحاج صالح من أبرز المشاريع اللسانية، الداعية إلى إعادة قراءة التراث النحوي العربي وفق رؤية إبستمولوجية معاصرة، غايتها تحرير العقل النحوي العربي من ركوده التاريخي وجموده التعليقي، فبدلاً من الاكتفاء بالوصف الظاهري للمتن النحوي، وحصره بين مطرقة التكرار التراثي وسندان التبعية للمدارس الغربية، سلك طريقاً معرفياً فريداً؛ جعله يعيد اكتشاف العبقريّة الرياضية الكامنة في فكر الخليل بن أحمد الفراهيدي، فصاغها- النظرية الخليلية الحديثة- في قالب لساني معاصريضاهي أرقى النماذج التوليدية والحاسوبية.

هذه الصياغة لم تقف عند حدود المصطلح، بل تجاوزت حدوده إلى إعادة بناء النسق؛ استبدلت المنطق الأرسطي الصوري بمنطق لغوي رياضي يقوم على مفاهيم الخلية النحوية والاستقامة والتحويل؛ تحولت فيه اللغة من مجرد مدونة نصوص ثابتة إلى منظومة ديناميكية، تقوم على مفهوم الخلية والمماثلة والنمذجة الرياضية. وهذا ما أثار عدّة تساؤلات منها:

إلى أي مدى استطاع مشروع عبد الرحمن الحاج صالح في النظرية الخليلية الحديثة أن ينقل العقل النحوي العربي من مرحلة الاستهلاك للتراث إلى مرحلة النمذجة الرياضية والنسقية؟ وكيف أمكنه التوفيق بين صرامة الأصول الخليلية والسيبويهية ومقتضيات المنهج اللساني المعاصر، في بناء فلسفة لسانية قادرة على استيعاب إشكاليات الخطاب المعاصر، ومعالجة اللسان العربي في ضوء الآفاق الإجرائية للذكاء الاصطناعي؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات، تم الانطلاق من مجموعة من الفرضيات، أهمها:

- إن مشروع الحاج صالح قد نجح في إحداث قطيعة إبستمولوجية مع النحو المعياري التقليدي، من خلال تحويل القواعد النحوية من مجرد وصف ظاهري للسان إلى نسق رياضي بنيوي قابل للنمذجة، ما مكّنه من استخراج القوانين الكلية التي تحكم بنية العقل النحوي.
- إن قدرة الحاج صالح على الربط بين أصالة التراث (الخليل وسيبويه) وحداثة المنهج (اللسانيات الحديثة) لم تكن مجرد استعارة منهجية، بل كانت عملية إعادة بناء للأسس النظرية العربية، ما جعل من التراث اللغوي منطلقاً لا عائقاً أمام التجديد اللساني.

● إن النظرية الخليلية الحديثة تكتسب فاعليتها الإجرائية من قدرتها على الانتقال من مجهر اللفظة المفردة إلى الهندسة الكلية لبنيات الكلام، ما يؤهل اللسان العربي للمواكبة التقنية، وتحديدًا في مجالات المعالجة الآلية والذكاء الاصطناعي التي تتطلب صياغات دقيقة ورياضية للغة.

ولتأكيد هذه الفرضيات أو نفىها يسعى هذا المقال إلى تحليل آليات هذا التحول المنهجي، وذلك من خلال محاولة رصد تلك القطيعة المعرفية مع النحو التعليمي المتأخر، مبرزًا ميكانيزمات النموذج الخليلي في تشكيل الجملة، وصولاً إلى استنباط مدى قدرة الحاج صالح في جعل التراث النحوي العربي نظاماً قادراً على اقتحام عصر الذكاء الاصطناعي والمعالجة الآلية، محققاً بذلك المعادلة الصعبة بين أصالة المنهج وحدائه الرؤية.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة إتباع منهج وصفي- تحليلي؛ حيث يضطلع المنهج الوصفي بمهمة الاستقراء التوثيقي لأصول المادة التراثية ومفاهيمها (الوضع، اللفظة، الكلم)، ليوفر أرضية صلبة للمنهج التحليلي-النمذجي الذي يتولى عملية إعادة هندسة هذه المعطيات وفق مقاييس النظرية الخليلية الحديثة، محولاً الأوصاف التاريخية إلى نماذج رياضية وظيفية.

2. إعادة قراءة التراث في ضوء النمذجة اللسانية: التوفيق الابداعي بين أصالة الجذور وحدائه المنهج:

إن التمسك بالتراث العربي تشبث بالهوية العربية وحفاظ عليها، ولكن ما يُؤسّف له أن يواجه التراث بالفكر اللساني الحديث، فهذا يؤدي إلى نوع من القطيعة بين محافظ على التراث العربي، وبين مجدد مستهلك للنظريات الغربية، فالمتأمل يكاد يوقن بأن العرب على امتداد تاريخهم بين القديم والحديث قد بلغوا شأواً يقترب من الكمال (يُنظر: المسدي، 1986، ص ص 12- 13). إلا أن المتأمل في واقعهم اللغوي يدرك حقيقة مفادها أن لا حادثة تنهض بمعزل عن التراث، بل إن الحادثة نفسها ستتحوّل مع مرور الزمن إلى تراث (يُنظر: علوي/العناتي، 2009، ص 124). لذا فلا غرابة في اعتبار قراءة التراث تأسيساً للمستقبل، يستند إلى أصول الماضي، مما يتيح بعث الجديد من رحم المكتسب الأصيل (يُنظر: المسدي، 2010، ص 25)، فلا يُنظر إلى التراث كجثة هامدة، بل كخزان طاقة للمستقبل. ومما لا يدع مجالاً للشك، أننا نمتلك إرثاً لغوياً هو من أغزر ما خلفته الأحقاب الحضارية للأجيال المتعاقبة (يُنظر: المسدي، 1986، ص 12)، هذا الإرث الذي كان محط تباين الرؤى نتيجة للثنائية التي شغلت ولا تزال الفكر العربي المعاصر، ألا وهي الأصالة والمعاصرة أو التراث والحداثة، الأمر الذي أفرز استقطابات حادة (يُنظر: منصر، 2017، ص 7)؛ الاستلاب التغريبي الذي ارتقى في أحضان المناهج الغربية منبثاً عن جذوره، والجمود التراثي الذي انحبس في قوالب القرون المتأخرة، غافلاً عن إشراقات العصور الإسلامية الأولى (يُنظر: الحاج صالح، 1975، ص 16)، نزعة تعتقد أن كل ما هو مفهوم أجنبي "فهو صالح للاستهلاك"، ولا بد أن يبحث له عن مقابل عربي، فهي بذلك مقتنعة أن جميع المفاهيم التي تأتيها من الخارج تستحق أن تتبوأ مقامها في النشاط الفكري العربي بدعوى أنها صادرة عن أمم راقية تقدمت علينا تقدماً ملموساً. ونزعة أخرى تؤمن بما يسمى بالإيجابية، فغالت فيها حتى صارت لا تعترف بأي بحث تحليل غير الوصف المجرد للواقع، وترفض كل افتراض يتجاوز هذا الوصف، بل تعتقد أن كل بحث يرمي إلى تغيير هذا الواقع فهو عمل غير علمي إنما هو مجرد محاولة انتفاعية لا

إبستمولوجيا العقل النحوي العربي: فحص في الأسس النظرية والآفاق الإجرائية للنظرية الخليلية الحديثة

علاقة لها بالعلم" (الحاج صالح، 1975، ص 16)، وبين هذا وذاك تتأرجح نزعة توفيقية تنحو نحو التوفيق بين التصور الحدائي والتصور التراثي، وتحاول ربط التراث بما استجدّ من معطيات.

وكمحاولة لكسر حدة الاغتراب المعرفي عمد عبد الرحمن الحاج صالح إلى ربط التراث العربي الأصيل بأرضين ما أنتجه الفكر اللساني الحديث؛ إمّا من خلال المزاجية بينه وبين المفاهيم العلمية المجمع على صلاحيتها (يُنظر: بلعيد، 2004، ص 149)، أو عبر تسليط النقد البناء عليه.

وبناء على ذلك فلا يصحّ وضع فاصل معرفي بين العمل اللساني القديم والحديث، فالأحرى هو اعتبار البحث اللساني الحديث امتدادا للبحث القديم، يدخل معه في علاقة تفاعل مستمر وحوار متجدّد (يُنظر: علوي/العناتي، 2009، ص 20)، وهذا ما حاول الحاج صالح تجسيده انطلاقا من النظرية الخليلية الحديثة، فلقد بذل جهدا من أجل المحافظة على اللغة العربية وإثرائها، بل وجعلها كافية وافية بمستحدثات العلم الحديث، قادرة على الدوام على أداء رسالتها أدق أداء، فكان يؤكد على أهمية المعرفة بالنماذج القديمة التي تمنح المتعلم المتن اللغوي الصحيح، وينأى عن العربية التي يغلب عليها السجع وانتقاء الألفاظ. لم يكن يرى ضرورة لامتلاك معرفة مستفيضة بالتفصيلات المعقدة للنحو العربي، فالأساس لديه هو التمسك بآليات الإعراب الذي يجلي المعاني، وبهذا غرس الاتجاه العقلي في اللغة بعد تنقيح النقل (يُنظر: بلعيد، 2004، ص 148)، كما ظلّ قوّاما على عمله الأكاديمي في ربط الدراسات العربية القديمة منها والحديثة مع الدراسات الغربية.

وفي هذا الصدد يركز الحاج صالح على الأصالة اللغوية التي "تقابل في الحقيقة التقليد أيّا كان المقلد المحتذى به سواء كان العلماء العرب القدامى أو العلماء الغربيين؛ إذ الأصيل هو الذي لا يكون نسخة لغيره" (الحاج صالح، 2012، 1/11) مهما كان المكان والزمان، فلا ينبغي التسليم بكل ما هو وافد؛ إذ لا بدّ من إخضاع كل ما يصدر من النظريات الوافدة للنقد الموضوعي الذي واجهته في بيئتها الأصلية، معتبرا أن غنى التراث العربي لا يقلّ قيمة عن أحدث النظريات الغربية (يُنظر: بلعيد، 2004، ص 148).

إن العجز عن استيعاب التراث العلمي يرجع في جوهره إلى جهلٍ بالمقاصد، أو إسقاطٍ قسري للمفاهيم الغربية، كالبنوية الحديثة مثلا، على لسانٍ له خصوصيته. إن المنهج الرصين لا ينبذ الغرب ولا يقدّس القديم، بل يركز على الدليل العلمي وحده (يُنظر: بلعيد، 2004، ص 148-149).

لقد أعاد الحاج صالح قراءة التراث قراءة واعية، عميقة، وبمفاهيم آنية، من خلال ثورة اللسانيات الحديثة، لا لينسخ هويتها، بل ليمنحها نفوذا معرفيا أوسع. إنها عملية تثوير للمفاهيم، تُخرج اللغة من سياق التقديس الجامد إلى رحاب العلم المتجدّد، معتبرا أن اللسانيات هي الأداة الأنجع لإعادة هيكلة الوعي اللغوي الانساني (يُنظر: بلعيد، 2004، ص 149).

3. أفق عبقرية الخليل الممتدة: الهندسة الخفية للسان العربي:

إن تسمية النظرية الخليلية الحديثة (NKT) لم تكن مجرد استدعاء لاسمٍ عَلم، بل هي انحياز معرفي لنموذج لغوي متكامل، وهي تسمية جاءت من باب التغليب التاريخي؛ اعترافا بالخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ)، بوصفه القطب الذي دارت حوله رعى العبقرية اللغوية العربية، مع الإدراك العميق بأن الخليل لم يكن صوتا

منفردا، بل كان الثمرة الأنضج لمخاضات شيوخه وبيئته العلمية التي أسست لنظام لغوي يتسم بالفرادة(يُنظر: الحاج صالح، 2007، 20/1).

لم يشأ الحاج صالح ورفقائه من الباحثين أن يظل الخليل حبيس الأروقة العتيقة، أو متون "الكتاب" لسببويه؛ بل سعوا إلى تحرير تلك العبقرية من قيود التفسير التقليدي، لبعثها في روح العصر، فكان مشروعهم امتداد واصل لا ينقطع، فتم استحضار الخليل ومدرسته كمنهج عابر للأزمنة، قادر على محاورة أحدث النظريات اللسانية العالمية.

وتتجلى عبقرية النظرية الخليلية الحديثة في انتقالها النوعي من الوصف اللساني إلى الحوسبة اللغوية، مدركين أن صرامة النظام الخليلي وقوابله الرياضية هي المفتاح الذهبي للولوج إلى عصر الذكاء الاصطناعي؛ فقاموا بتطويع تلك الأنماط التراثية لتبلي شروط أنماط التعامل مع الأجهزة الحديثة(يُنظر: بلعيد، 2004، ص153)، وهو ما تجسّد في مشروع الذخيرة اللغوية وحوسبتها؛ وهذه الأخيرة التي هي "بنك آلي للغة العربية المستعملة بالفعل، يتضمن أمّات الكتب التراثية الأدبية والعلمية والتقنية وغيرها. ويشتمل على الإنتاج الفكري العربي المعاصر في أهم صوره، بالإضافة إلى العدد الكبير من الخطابات والمحاورات العفوية بالفصحى في شتى الميادين. وعلى هذا فهو بنك نصوص لا بنك مفردات"(الحاج صالح، 1996، ص7). لم ينظر الحاج صالح إلى الحاسوب بوصفه أداة صمّاء، بل بعَدّه شريكا إدراكيا قادرا على التحوّل مع اللغات الطبيعية، إذا ما فُكّكت شيفرتها رياضيا. إنها محاولة فلسفية لرياضة اللسان، أين تتحوّل القواعد النحوية إلى خوارزميات منطقية تمنح الآلة القدرة على استيعاب عبقرية العربية؛ فمن خلال مختبراته العلمية وبإشرافه المباشر على جيل من الباحثين سعى إلى تجسيد "النظرية" في واقع "التطبيق"، فاتحا آفاقا غير مسبوق في التوثيق الآلي والترجمة، التعليم والتركيب الصوتي، وصناعة الوعي الآلي(يُنظر: بلعيد، 2004، ص ص 157-158). ولهذا نجده يلجّ على ضرورة التعاون المعرفي والمساهمة في اختصار المسافات وتوفير الجهود من أجل ضمان حجز مكانة تليق باللغة العربية في صدارة الحضارة التقنية المعاصرة، لذا فإن ضخامة التحدي اللغوي المعاصر تفرض علينا الخروج من جزر الاختصاص المنعزلة إلى فضاء معرفي أوسع؛ فالبحث العلمي اليوم لم يعد شأنًا أحاديا، بل استحالة إلى ما يسمى بالبحوث البينية العابرة للتخصصات: Research Interdisciplinary، هذا التحالف الاستراتيجي الذي يشترك فيه اللساني، والرياضي، والتقني، في سعي جماعي لفك شفرات اللسان البشري، وإعادة صياغتها بروح العصر.

ولقد آن الأوان لندرك بوعي رصين أن النظريات اللغوية الحديثة رغم بريقها تظل قاصرة عن استيعاب الفرادة العربية؛ فهي نظريات نبتت في بيئات تأملية استنبطت قوانينها من رحم اللغات الأوروبية وتراكيبها الخاصة، وبالتالي فإن إسقاط هذه النظريات بحذافيرها على اللغة العربية هو قسر معرفي يغفل الخصوصية البنيوية للسانيات العربية. وفي هذا السياق يبرز التراث النحوي العربي، ليس كأثر مجمّد، بل ككنز منطقي دافق، يمثّل بنية ذهنية فائقة الدقة تتناغم بشكل مذهل مع متطلبات اللسانيات الحاسوبية المعاصرة؛ كونه يرتكز في جوهره على الرياضيات الذهنية والمنطق الصوري(يُنظر: الحاج صالح، 2012، 231/1).

إبستمولوجيا العقل النحوي العربي: فحص في الأسس النظرية والآفاق الإجرائية للنظرية الخيلية الحديثة

والنظرية الخيلية الحديثة" هي في الواقع نظرية ثانية Métathéorie لأنها في الوقت نفسه تنظر وتبحث في أسس النظرية الخيلية الأولى.... وقراءة جديدة لهذا التراث وإعادة صياغة لمفاهيمه الأساسية ومقارنتها بما توصل إليه البحث اللساني الحديث ومحاولة استثمار ذلك في الدراسات اللغوية العربية" (إبرير، 2005، ص9)؛ أي أنه يحاول أن يؤسس لمشروع يربط الأصول العميقة بالبحث اللساني الحديث، محققا بذلك التوازن بين الأصالة والتجديد.

تقوم هذه النظرية على شبكة مفاهيمية متماسكة، تنقل النحو من حيز الوصف التعليمي إلى فضاء التحليل البنيوي الرياضي، وتتجلى أبرز خصائصها فيما يلي: (يُنظر: بلعيد، 2004، ص154)

1- اللغة وضع واستعمال. 2- مفهوم الباب 3- مفهوم المثال 4- مفهوم القياس

5- مفهوم الأصل والفرع. 6- مفهوم الانفصال والابتداء. - مفهوم اللفظة والعامل.

وهذه المفاهيم عند الحاج صالح تشكل مصفوفة رياضية متكاملة؛ حيث يتحول النحو العربي إلى هندسة لسانية تزوج بين عمق التراث العربي ودقة المنطق الصوري الحديث.

تصل هذه الرؤية إلى ذروة نضجها حين كشف الحاج صالح عن حقيقة إبستمولوجية قلبت موازين البحث اللساني؛ مفادها أن التراث النحوي العربي ليس مجرد مدونة وصفية، بل نظاما تفسيريا فائقا يكتنز مفاهيم ومناهج تحليلية تضاهي، بل تتفوق في بعض جوانبها على ما استقرّ في اللسانيات الغربية الحديثة (يُنظر: الحاج صالح، 2012، ص182)، فهناك الكثير من المفاهيم اللغوية العربية لا تتضمنها اللسانيات الغربية، كنظرية العامل مثلا، وهو ما يجب أن نفتخر بمثله لأنه يفسر الكثير من الظواهر اللغوية، وقد ضيّق المتأخرون مفهومه فحصره في كونه سبب الإعراب وهو يتجاوز ذلك في الحقيقة. فهو محور البنية لكل جملة في أية لغة هندية أوروبية أو حامية سامية. وقد يكون مساويا للصفر وهو مفهوم الابتداء في العربية، وهذا غير معروف عند الغربيين، ومثل ذلك في الأهمية مفهوم البناء للكلمة أي الوزن، فهو أعظم ما ابتدعه العلماء العرب ولا تعرف اللسانيات الغربية هذا المفهوم،" (الحاج صالح، 2011، ص ص 14-15) ما يمنح العربية تفوقا فريدا في مجالات النمذجة الآلية والذكاء الاصطناعي.

يرى الحاج صالح أن الأزمة الحقيقية في الدراسات اللغوية العربية لم تكن في غياب المصطلح، بل في الاغتراب الدلالي الذي أصابه. لقد حافظ المتأخرون على الهياكل اللفظية للمصطلحات، لكنهم أفرغوها من حملتها المنهجية الأصيلة، ما أدى إلى الوقوع في حالة من التخليط المعرفي والمنهجي حجت عبقرية النظام الخيلي الأول (يُنظر: إبرير، 2005، ص11)؛ فالمسند والمسند إليه عند سيبويه يمثلان وحدات اسنادية كبرى تضبط هندسة المعنى في الجملة، في حين اختزلهما المتأخرون في ثنائيات إعرابية ضيقة، ما أدى إلى ضياع الفرق الجوهرية بين المبني والمبني عليه، وبناء كلمة على أخرى في التركيب هو غير الإسناد والتفريع والشغل كما ظنّه المتأخرون (يُنظر: الحاج صالح، 2012، ص183)، لذلك يرى ضرورة إعادة بناء نحو علمي قادر على محاورة الحاسوب الذي لا يقبل خلطا بين "الرتبة" و"العلاقة" ولا بين "البناء" و"الاسناد".

4. تمثيلات القطيعة المعرفية مع التأويل الفلسفي للنحو العربي: استقصاء في المرجعيات التأسيسية للتجديد لدى المحدثين:

دعا الحاج صالح إلى إعادة النظر حتى في الألفاظ التي تبدو واضحة المعاني، فهو يعتقد أن ألفاظا مثل (باب) أو (حد) و(مثال) و(بناء) و(وصل) و(إدراج) و(نظير) و(جرى على) و(حمله على) و(أصل) و(فرع)... إلخ هي مفاتيح إجرائية في معمارية لسانية بالغة التعقيد، تتطلب إعادة نظر جذرية لاستعادة محتواها الذي ضاع بين تأويلات المتأخرين. وقد تنبّه ثلّة من الباحثين العرب إلى قيمة التراث النحوي، لاسيما ما ورد في كتب سيبويه وابن جني من أصول الخليل، بل وتوصلوا إلى أن الفكر الخليلي ليس مجرد قواعد معيارية، بل هو فكر رياضي تجريدي عالي. ومع ذلك بقيت هذه الآراء الصائبة حيز الانطباعات أو المحاولات الجزئية التي لم ترق إلى مستوى النظرية الشاملة، انطلاقا من النصوص المؤسسة المجمع على صحتها، والتحرر من الأقوال المشبوهة والأحكام الانطباعية، مع التجرد من كل حكم مسبق من أحكام بعض قدماء المستشرقين الذين تجاوزهم العلم الحديث (يُنظر: الحاج صالح، 2012، هامش ص 183).

5. إعادة استنطاق الموروث: جدلية الكلم واللفظة في النحو العربي بين سيبويه والحاج صالح:

إن الكلم في فكر سيبويه ينبثق من رحم درج الكلام، وهذا التقسيم الثلاثي: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، هو تحديد لوحدة الوعي اللساني، وبناءً على رؤيته العبقريّة التي تعتبر الحركات هي أبعاد لحروف المد، فإن الحركات الإعرابية عنده هي أيضا كلمات، لأنها وحدات صوتية قابلة للتقطيع في درج الكلام، وتؤدي وظيفة دلالية. على النقيض من ذلك يختزل ابن مالك الكلمة في اللفظ المستقل الدال بالوضع تحقيقا أو تقديرا أو منوي معه، ما يُخرج الحركات الإعرابية والزوائد البنيوية من مسمى الكلمة ليُدخلها في مسمى اللواحق (يُنظر: الحاج صالح، 2012، هامش ص 183).

والملاحظ أن سيبويه قد تجاوز التقسيم التقليدي للكلم، ليجعل الحرف كعنصر ثالث ذي قيمة دلالية محددة؛ أي لا يأتي للدلالة على ذات (Object) كالاسم، ولا على حدث (Process) مقترن بزمان كالفعل، بل يؤسس لمعنى مستقل يتجلى في سياق التركيب، كالاستفهام أو النفي أو غير ذلك من الروابط التي تضاف إلى الاسم والفعل، وتؤدي وظيفة لا يمكن أن يقوم بها اسم أو فعل بمفرده؛ لأن بعض الأسماء والأفعال تدل على معاني كالظروف وأسماء الاستفهام والأفعال الناسخة وغير ذلك (يُنظر: الحاج صالح، 2012، 242/1).

ثم يقسّم الكلم إلى مستويين: متمكن يتمثل في الأسماء والأفعال المتصرفة التي تمتلك اكتفاء ذاتيا في الدلالة؛ أي أنها تنفرد بنفسها في مدرج الكلام، لأنها تمتلك القدرة على الابتداء والوقف، ويتألف من أصل وصيغة، ما يمنحها مرونة التوليد والحركة داخل النظام اللغوي. وغير متمكن ويتمثل في حروف المعاني والأفعال الناقصة وغير المتصرفة والأسماء المبنية، وهي لا تكتفي بذاتها بل تحتاج إلى غيرها؛ إذ تفتقر إلى الاستقلال الوجودي في دفع الكلام، وينعدم فيها التفاعل بين الأصل والصيغة، مما يجعلها عناصر جامدة تعمل كروابط أو محسنات بنيوية لا تستقيم الجملة بدون تعلّقها بالكلم المتمكن (يُنظر: إبرير، 2005، ص 14).

إبستمولوجيا العقل النحوي العربي: فحص في الأسس النظرية والآفاق الإجرائية للنظرية الخليلية الحديثة

ثم يرتقي الحاج صالح بتحليله إلى مستوى التعقيد البنيوي الخاص باللفظة، حيث ينتقد الرؤية اللسانية- سواءً لدى الغربيين أو المتأخرين من النحاة- التي تصورت انتظام الكلم في الكلام انتظاماً بسيطاً، ففي الفكر الخليلي الأصل لا تتحرك الكلمة في الفضاء اللساني ككيان معزول، مجردة من سوابقها ولواحقها، بل كجزء من نظام كلي تندمج فيها الأصول (الاسم والفعل) مع لوازمها الوظيفية كأدوات التعريف، وحروف الجر، وحروف الاستقبال، أو الضمائر المتصلة، والمضاف إليه والتركيب المسمى بالصلة والموصول والصفات وحتى الأبنية المسماة- من حيث الإفادة فقط- جملاً، وهي عناصر مكونة لهوية الوحدة اللسانية في سياق الإدراج (يُنظر: الحاج صالح، 2012، ص 192).

وعلى هذا الأساس فإن عبارات: الكتاب- كتاب التلميذ- بالكتاب- الكتاب المفيد الذي اشتراه التلميذ أمس، تعامل معاملة الكلمة الواحدة أو الاسم الواحد في موقعها الإعرابي ووظيفتها الدلالية، فهي نواة صلبة تكتسب معناها من تلاحم أجزائها. ومن هنا اقترح الحاج صالح على علماء اللسان الغربيين أن تسمى (lexie) لفقدان هذا المفهوم عندهم، لا لترفٍ اصطلاحى، بل هو دعوة للاعتراف بأن المنطق الخليلي يمتلك أداة تحليلية أكثر شمولية وقدرة على استيعاب تعقيد النظم اللسانية (يُنظر: إبرير، 2005، ص 14).

فاللفظة إذن هي مجموعة من الكلمات تنصهر معا لتؤدي دور الكلمة الواحدة في سياق الادراج، ولتفكيك هذا التركيب المعقد يقترح الحاج صالح- مستلهما من الخليل- معيارين إجرائيين يمثلان حجر الزاوية في التحليل البنيوي، هما مقياس الانفصال والابتداء. فيمكن ترتيب القطع اللغوية بالنظر إلى قابليتها للانفصال وإمكانية البدء بها إلى المراتب التالية:

- وحدات يبتدأ بها ولا يوقف عليها مثل: إلى، في، إلى القسم.
- وحدات لا يبتدأ بها ولا يوقف عليها مثل (ت) في دخلت.
- وحدات يبتدأ بها ويوقف عليها مثل رجل، للجواب عن، من دخل. (يُنظر: إبراهيمي، 2006، ص ص 97-98).

لم يكن اعتماد القدماء لمقياسي الانفصال والابتداء مجرد ملاحظة عابرة، بل كان وضعاً لقاعدة الوجود لكل وحدة لغوية، وهذه الصفة الانفرادية هي التي سمحت بتمييز الأصل عما يتفرّع عنه، ما أدى إلى صياغة مفهوم الاسم المفرد وما هو في حكمه. ولهذا يجب أن ينطلق من أقل ما ينطق به مستقلاً، وهو الاسم المظهر بالعربية، والذي يمثل الكيان البنيوي لأنه يمتلك القدرة على الانفصال والابتداء دون الحاجة لعكاز لغوي، وبه تقاس درجات وجود العناصر الأخرى، ولهذا سعى النحاة الأولون هذا بالاسم المفرد (المفرد وظيفياً لا عددياً)، أو ما هو بمنزلة الاسم المفرد (يُنظر: بن التواتي، 2008، ص 100). فكل ما انطبق عليه معيار الانفصال والابتداء فهو اسم، وكل ما التحم به ولم ينفصل عنه صار جزءاً من منزلته؛ أي أنها عملية تنميطة تسمح للنظام النحوي بمعالجة جملة معقدة وكأنها مجرد اسم بسيط، وهذا ما يمنح اللغة مرونة هائلة في التوليد والتركيب.

إن الاعتماد على مقياسي الانفصال والابتداء يمنح الباحث اللساني استقلالاً منهجياً، دون الحاجة إلى استعارة فروض خارجية أو إقحام معايير منطقية غريبة عن طبيعة اللغة، بل ينطلق من مادية اللفظ وجريانه على اللسان

لاستكشاف حدوده الحقيقية. وهذا المنطلق يصبح اللفظ هو المعطى الأول والوحيد، وهذا المنطلق هو وحدة لفظية (Unité-sémiologique) ووحدة إفادة (Unité-communicationnelle)، لأنها يمكن أن تكون جملة مفيدة، وبالتالي فهي تحتل مكانا يتقاطع فيه اللفظ مع المعنى أو البنية بالإفادة (يُنظر: بن التواتي، 2008، ص ص 100-101).

وينتقل الحاج صالح إلى الكشف عن مقياس التمكن؛ أي القدرة على التوسع دون فقدان الهوية، ما يمنح الوحدات اللسانية رتبا في سلم الأولوية. والتمكن هنا يعني قدرة القطعة اللغوية على أن تكون نواة جاذبة تقبل الالتفاف والزيادة من جهتي اليمين (السوابق) واليسار (اللاحق)، دون أن تهيار بنيتها الأساسية. والاسم في العربية هو الكيان الأكثر تمكنا لأنه يقبل عددا هائلا من المخصصات والزيادات (يُنظر: إبراهيمي، 2006، ص 98). وهذا التمكن ليس مجرد علامة إعرابية، بل هو مؤشر على المرونة الحركية للوحدة اللغوية على محوري التعاقب والاشتقاق، وله درجات؛ فهناك اسم الجنس المتصرف وهو المتمكن الأمكن لأنه يقبل كل التحولات (التنوين، التصغير، الجمع، التعريف)، ويقبل كافة الزيادات يمينا ويسارا. ثم الممنوع من الصرف فهو المتمكن غير الأمكن؛ متمكن في ذاته لأنه اسم، لكنه غير أمكن لعلّة منعت تمام تصرّفه (كالتعريف أو شبه الفعل). ثم المبني فهو غير المتمكن ولا أمكن؛ حيث فقد ميزة التمكن لأنه لزم حالة واحدة، وفقد الأمكنية لأنه شابه الحرف في جموده. وهكذا من خلال هذا التدرج يتم الوصول إلى المثال الواحد (Model) الذي يتحدد به الاسم (يُنظر: الحاج صالح، 2012، 220/1).

في تصور الحاج صالح أن الكلم هي العناصر التي تتكون منها اللفظة، والكلمة تعني المورفيم، والكلمة هي عنصر واحد من عناصر اللفظة، "غير أن حروف المضارعة وإن كانت مورفيمات إلا أنها ليست كلمًا؛ أي لا يمكن أن تحذف دون أن تتلاشى الكلمة التي هي معها... فهي مبنية مع غيرها في كلمة واحدة... فهناك عناصر تدخل وتخرج على الكلمة في داخل اللفظة وهي كلمٌ مثلها وعلاقتها بها هي الوصل" (الحاج صالح، 2012، 326/1)، وهو ما يسمح لللفظة الواحدة بالتوسع دلاليا مع الحفاظ على وحدتها الإيقاعية.

6. الاستدلال البنيوي عند الحاج صالح: من مجهر اللفظة إلى أفق النمذجة الرياضية:

ينتقل عبد الحاج صالح من مجهر الوحدات الصغرى إلى أفق الهندسة الكلية، حيث يغادر حدود اللفظة المفردة ليلج عالم بنيات الكلام، والغاية من ذلك اكتشاف ذلك القالب الرياضي الذي يُبنى عليه أقل الكلام المركب، ما يسمح بحمل الكلام بعضه على بعض وفق منطق القياس والجنس البنيوي؛ بمعنى أن الانطلاق في التحليل اللغوي يتم من أقل ما يتألف به كلام مفيد، للوصول إلى ذروة التجريد بالوقوف عند العامل؛ الذي يعدّ قوة إجرائية تمارس سلطتها على التركيب، فيعمل فيه الرفع والنصب، وهو الذي يحدد العلامات الإعرابية في التركيب (يُنظر: إبرير، 2005، ص 15). فنظرية العامل هي تجسيد لمبدأ النظام والاتساق في الفكر العربي القديم؛ حيث لا إعراب بلا عامل.

إبستمولوجيا العقل النحوي العربي: فحص في الأسس النظرية والآفاق الإجرائية للنظرية الخليلية الحديثة

وأبنية الكلام هي القوالب التي توفر الهيكل الجوهرى الذي تُفرغ فيه المادة اللغوية الخام لتتحول من مورفيمات وكلمات مشتتة إلى نظام معقد من المعاني. هي ذلك الثابت في عالم المتغير (يُنظر: إبراهيمي، 2006، ص 100).

يتجاوز الحاج صالح النظرة السطحية للجملة، لي طرح رؤية ديناميكية تجعل من العامل العقل المدبر والضابط البنيوي الذي يهيمن على الفضاء التركيبي، سواءً كانت الجملة فعلية أو اسمية؛ فالعامل هو المحرك الحقيقي، والمنتج للعلاقات، فهو الذي يمنح العناصر اللغوية وظائفها التركيبية (الاسناد، المفعولية، أو التبعية)، وتوزيع الحركات الإعرابية المناسبة لها (يُنظر: بعيطيش، 2010، ص 80).

ويشير الحاج صالح إلى ذلك الانزلاق الفكري الذي وقع فيه بعض النحويين، وهو الخلط بين عالم اللفظ (Sémiologico-Grammatical) وبين عالم المعنى والإفادة (Communicationel). هذا الخلط يغفل عن حقيقة أن اللغة نظام مادي (لفظي)، له قوانينه الخاصة التي قد تتقاطع مع المعنى لكنها لا تذوب فيه. فبفضل المنهجية العلمية التي أرساها العلماء العرب الأوائل، والتي تقوم على القياس بوصفه آلية عقلية تمنح الحكم للشيء بناءً على جامع يربطه بغيره، يمكن الكشف عن أسرار بنية اللفظ (يُنظر: الحاج صالح، 2012، 309/1).

وينطلق الحاج صالح في التحليل من رصد لحظة الانتقال من اللفظة المفردة إلى التركيب الثنائي، معتبرا إياه العتبة الأولى لاكتشاف القوانين التي تحكم بناء الكلام وتماسكه؛ حيث نجده يؤصل لمنهج النحاة الأوائل في الانطلاق من أقل ما يمكن أن يتألف منه الكلام، كـ (زيدٌ قائمٌ، ضربتُ زيداً)، والتي هي وحدة بناء عليا تُختبر فيها علاقات البناء والوصل، بهدف اكتشاف كيف تترابط الوحدات فوق مستوى اللفظة لتشكّل كيانا مستقلا يحمل معنى مفيدا.

ثم انطلقا من هذا أخضعوا الجملة إلى عملية الزيادة المطردة، بإدخال عناصر يميننا ويساراً (مخصصات، فضلات، أدوات) دون أن تفقد وحدتها البنيوية مهما طالّت؛ فالإضافات تزيد في المعنى وتغيّر الإعراب، لكنها لا تهدم الأصل الذي قامت عليه الجملة (يُنظر: الحاج صالح، 2012، 308/1 - 309).

ثم نجد الحاج صالح يشير إلى نقطة التقاء التراث بالحدثة قائلا: "ويمكن أن تطول هذه الوحدات إلى ما لا نهاية، إلا أن قدرة الإنسان محدودة على الإتيان أو على فهم الوحدات الكثيرة الكلم والمتداخلة العناصر" (الحاج صالح، 2012، ص 193)، وقد سماها تشومسكي بالـ "(Recusiveness)؛ أي قدرة اللغة على توليد جمل لا متناهية الطول من خلال إدراج بنيات داخل بنيات أخرى، ويسمى سيبيويه هذه الظاهرة "إطالة"، وهذه هي نقطة التقاءه- سيبيويه- بالمنطق الرياضي واللسانيات الحديثة (يُنظر: الحاج صالح، 2012، 330/1).

7. المنظومة الإبستمولوجية للسان العربي عند الحاج صالح: جدلية الوضع ومستويات التجريد في بنية الكلام: يؤسس الحاج صالح مقارنة تحليلية تستند إلى ثنائية الوضع اللغوي؛ إذ يميز بين وضعٍ اصطلاحى يخص دلالة اللفظ على المعنى، ووضعٍ بنيوي يربط اللفظة بأنساق أبنية الكلام (يُنظر: الحاج صالح، 2012، ص 198). ولا يتوقف التحليل عند حدود اللفظة المفردة، بل يتجاوزها نحو مستويات أكثر تجريداً، متمثلة في مستوى العامل الذي يُعدّ المتحكم الإجرائي في التركيب، والمسؤول عن تحديد الوظائف الإعرابية (يُنظر: إبرير، 2005، ص 15).

وضمن هذا الإطار النمذجي، يُعرّف الحاج صالح أبنية الكلام كنسقي رياضيّ متسلسل، حيث يركز أصغر أبنية الكلام على تلازم وظيفي بين عاملٍ ومعمولٍ أول، يليه معمولٌ ثانٍ، وهو ما يجسد انتقال اللسان العربي من المستوى الوضعي السطحي إلى مستوى البناء العاملي العميق (يُنظر: الإبراهيمي، 2006، ص 113).

ويؤكد الحاج صالح أن الأبنية اللغوية تحاكي الرموز الرياضية في خلّوها من الدلالة المباشرة، معتبرا أن الابهام الناتج عن التجريد ليس عائقا، بل هو ضرورة منهجية حتمية لإخضاع اللسانيات وسائر الظواهر للدراسة العلمية الدقيقة (يُنظر: الحاج صالح، 2012، ص 199).

8. خاتمة

وكحوصلة لما سبق يمكن القول أن مشروع عبد الرحمن الحاج صالح يمثل تحولاً إستيمولوجيا جذريا في الدراسات اللسانية العربية؛ إذ لم يكتف باستعادة التراث النحوي، بل أعاد صياغته ضمن نظرية خليلية حديثة قائمة على الصرامة الرياضية والنمذجة البنيوية. لقد نجح الحاج صالح في بناء جسر بين "الأصالة التراثية" المستمدة من أصول الخليل وسيبويه، و"الحداثة اللسانية" التي تتيح للسان العربي الانخراط في عصر المعالجة الآلية والذكاء الاصطناعي.

ومن هنا، يصبح هذا المشروع رؤية استشرافية تضع النحو العربي في مصاف الأنساق اللغوية القابلة للقياس والتحليل الإجرائي الدقيق، مما يفتح أمام الباحثين آفاقاً جديدة للاستثمار في العقل النحوي كمرجعية حية ومواكبة لطموحات المستقبل المعرفي.

10. قائمة المراجع:

- إبرير بشير، (2005)، أصالة الخطاب في اللسانيات الخليلية الحديثة، *مجلة العلوم الإنسانية*، مج 5 (ع7)، 09-25.
<https://asjp.cerist.dz/en/article/49600>
- اسماعيلي علوي حافظ/ أحمد العناتي وليد، (2009)، *أسئلة اللغة، أسئلة اللسانيات حصيلة نصف قرن من اللسانيات في الثقافة العربية*، (ط1)، لبنان/ الجزائر/ الرباط، مطابع الدار العربية للعلوم ناشرون/ منشورات الإختلاف/ دار الأمان.
- الحاج صالح عبد الرحمن، (1975)، البحث اللغوي وأصالة الفكر العربي، *مجلة الثقافة*، س5، (ع26)، 15-39.
- الحاج صالح عبد الرحمن، (2012/2007)، *بحوث ودراسات في اللسانيات العربية*، الجزائر، مطبعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، موفم للنشر.
- الحاج صالح عبد الرحمن، (2012)، *بحوث ودراسات في علوم اللسان*، الجزائر، مطبعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، موفم للنشر.
- الحاج صالح عبد الرحمن، (2011)، *أصول البحث في التراث اللغوي العلمي العربي*، *مجلة الممارسات اللغوية*، (ع02)، 05-24.
<https://asjp.cerist.dz/en/article/23570>
- الحاج صالح عبد الرحمن، (1996)، *مشروع الذخيرة اللغوية العربية وأبعاده العلمية والتطبيقية*، *مجلة الآداب*، (ع3)، 05-19.
<https://asjp.cerist.dz/en/article/18395>
- المسدي عبد السلام، (1986)، *اللسانيات وأسسها المعرفية*، تونس/ الجزائر، الدار التونسية للنشر/ المؤسسة الوطنية للكتاب، المطبعة العربية.
- المسدي عبد السلام، (2010)، *مباحث تأسيسية في اللسانيات*، (ط1)، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة.
- بعيطيش يحيى، (2010)، *الكفاية العلمية والتعليمية للنظرية الخليلية الحديثة*، *مجلة التواصل*، (ع25)، 01-24.
<https://asjp.cerist.dz/en/article/48874>
- بلعيد صالح، (2004)، *مقاربات منهجية*، الجزائر، مطبعة دار هومه، الجزائر.
- بن التواتي التواتي، (2008)، *المدرسة اللسانية في العصر الحديث ومنهجها في البحث*، (ط2)، الجزائر، دار الوعي.
- طالب إبراهيمي خولة، (2006)، *مبادئ في اللسانيات*، (ط2)، الجزائر، دار القصبة للنشر.
- منصر يوسف، (2017)، *الخطاب اللساني المغربي اتجاهاته ومضامينه*، *مجلة التواصل*، مج 13 (ع18)، 01-14.
<https://asjp.cerist.dz/en/article/48692>